كتاب

# الأرض الحرام .. رحلة الألم

عبد الله صخي

تثير رواية الكاتب الفلسطيني محمود شاهين* «الارض الحرام» الصادرة عن وزارة الثقافة والارشاد القومي ، مجدداً قضية صراع الانسان مع الطبيعة ، هذه القضية التي عولجت أكثر من مرة في الأدب العالمي ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك رواية «الشيخ والبحر» لهيمنغواي ، و «عناقيد الغضب» لجون شتاينبك .. ورواية «الارض الحرام» في منحاها هذا تعيد الذاكرة الى تلك المسيرة المرهقة في «عناقيد الغضب» ، الى اولئك البشر الذين يغادرون منازلهم بحثاً عن العمل في مزارع البرتقال في الغرب الأمريكي ، وبالتحديد في ولاية كاليفورنيا .

الا ان «الارض الحرام» عالجت الطبيعة بمعنى آخر ، اذ لم تقصر تناولها للطبيعة كعناصر ـ البحر ـ عند همنغواي ، و ـ العمل في المزارع وتغيرات الطقس ـ لدى شتاينبك ، انما تناولت العناصر الطبيعية في صراعها مع الناس ، وصراع الناس فيما بينهم ، ولكن الى أي مدى تنجح الطبيعة في التغلب على الناس ، والى أي مدى ينجح الناس في التغلب على بعضهم البعض ، وذلك ما تقصه علينا الرواية بلغة بيئية بسيطة الا انها غنية بدلالاتها الاجتماعية ، ومنسجمة مع مستوى وعي الشخصيات وظروف حياتهم .

جاءت الرواية سجلاً حافلاً بالنزاع التاريخي اللامحدود الذي وجد له الكاتب حلولاً جزئية او مشاريع حلول فتحت امام الرواية آفاقاً واسعة في البحث على اكثر من صعيد محملاً برموز ودلالات عمقت المسيرة المؤلمة في الرواية عبر السهول والوديان وشعاب الجبال ، من خلال شبكة العلاقات المتماسكة بين الرعاة وبحثهم الدائب عن العشب والخبز ، وبين الرعاة والاقطاع المدعوم من قبل النظام السياسي وسلطة الدولة القانونية . تلك هي حركة الرواية المفصلية التي تدور في زمن غير محدد ، أعني تأريخ الحدث ، وليس الزمن الروائي ، مما أكسب الرواية بعداً عميقاً في الزمان والمكان على حد سواء ، اذ من الممكن الاحساس بأن الأحداث قد وقعت فعلاً في فترة ما بعد الـ ٤٨ أو أيام ايلول الأسود ، او غيرها من المجازر التي ارتكبت ضد الفلسطينيين من قبل الكيان الصهيوني والأنظمة الحليفة له في المنطقة .

في هكذا زمن يبدأ محمود شاهين روايته ، وفي موقع معلن هو الضفة الغربية ، يضعنا في مواجهة الأحداث والمشاعر مباشرة ، فنجد أنفسنا في مجتمع رعوي معذب ، يركز جهوده الذهنية والاخلاقية كلها لرحلة تبدو

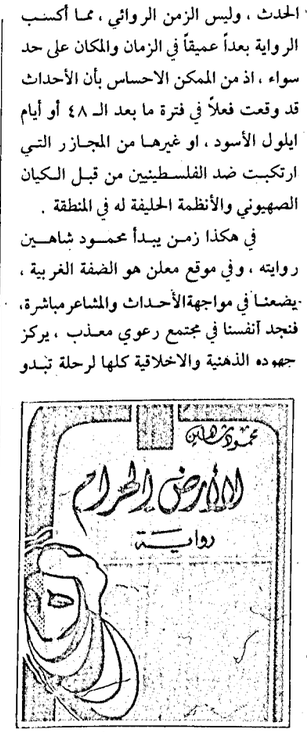


قسوتها واضحة من قلق الشخصيات وترددها ، الا انها يجب أن تحدث ، أما الرحلة واما الموت جوعاً ، الماشية والبشر معاً فوق ارض قاحلة ، ليس ثمة خيار اذن ، ازاء القحط والبؤس وضغط اصحاب الأرض ، ومؤامراتهم ، وازدياد التوتر في العلاقات بين الأطراف المتنازعة . لذا اختار محمود شاهين للرحلة مدخلاً رمزياً مؤنساً يمكن ان نصفه اخلاقياً ، هو لحظة ولادة احدى الأغنام ، ومع كونها ولادة عسيرة تؤدي الى وفاة الأم الا انها تضع حملين ، كبادرة مشرقة ، واحساس بنجاح الرحلة مشوب بالقلق والترقب ، نفذ ذلك الكاتب بصياغات واقعية مولياً اهتماماً خاصاً للتفاصيل الجزئية التي تسهم بتأثير داخلي في بنية العمل الروائي ، الا أنه يهمل قليلاً وصف البيئة الذي يفترض أن يكون أوسع ودقيقاً باعتبار البيئة عنصراً رئيسياً يمثل خطراً محدقاً بحياة القرية .. من ناحية اخرى يتميز اسلوب الكاتب بكثافته ـ باستثناء الوصف الذي يحمل معنى خاصاً ـ وسعة حواره ، اي سعة مساحته الهادفة ، فهو يقود الى اختصار في سرد الأحداث التي غالباً ما تسرد بطريقة هابطة فنياً تثقل العمل الروائي وتحمله عبئاً بلا طائل .

أثناء الاعداد للرحلة تقوم القرية بتكوين تجمع تعاوني للعناية بالأطفال والمقعدين والعاجزين عن العمل ، فيجمعون الادوات الضرورية ، كالأغذية والمؤن وأدوات الطبخ .. الخ ، يساعدهم في ذلك مدير ومعلمو مدرسة القرية ، فيطمئن المغادرون القادرون على تحمل مشاق الطريق . ان تشكيل هذا التجمع المثبت بوثيقة يوافق عليها شخصيات القرية بدون سماع آراء أصحاب الأرض ، يثير غضبهم ، فيعدون سراً بتحطيم المشروع واتلافه ، ويبدأ الكاتب بتوضيح الصراع الطبقي والاجتماعي بين الأطراف ، غير انه في تناوله للحياة المرفهة التي يعيشها ملاك الأرض في منازلهم الأخرى ، في المدن ، يحصر هذه الحياة وبقيدها ، حين يمكن أن يكون توسيعها أكثر تأثيراً خاصة في المشهد الجنسي الذي رسم بدقة ولكن بإيتسار ، الهادف في توضيح التحلل الأخلاقي الذي يسعى اليه الكاتب ، والى كشف حجم المؤامرة التي يدبرها اولئك ضد الرعاة .. يعمق الكاتب حدة الصراع في ناحيتين : الأولى اغتصاب أمينة ، بنت ابو أمين الشخصية البارزة في القرية من قبل ابن الشيخ ، وانتحارها في الوادي ، والعثور عليها بعد بحث مضن ، والثانية ، اعتداءات العشائر على طول الطريق المؤدي الى شمال القدس حيث العشب الموعود لرعي الأبل والماشية . تلك الاعتداءات التي غالباً ما تحدث لأسباب تبدو تافهة ، بين الراحلين واصحاب الحقول التي يمرون بها ، والتي تشكل معوقات لاستمرار الرحلة ، وتسبب وقوع قتلى من الطرفين . ومع ذلك يواصل المرتحلون مسيرتهم نحو المناطق المخضرة ؟

تشكل مؤامرات ملاك الأرض ورموز السلطة منعطفاً مثيراً في الرواية ، اذ تدعي السلطة بأن وراء قيام هذا التجمع تنظيماً شيوعياً «هداماً» ، وتبدأ الاعتقالات والتحقيقات واساليب التعذيب المختلفة ، في ذات الوقت يواصل المرتحلون مسيرتهم عبر الأراضي الشاسعة ، مصطدمين «بحقول الصهاينة» المحتلين الممنوعة ، وحقول ملاك الأرض المحروسة من الانتهازيين والمتخاذلين ، تلك هي «الارض الحرام» ـ هذه الارض المحرمة يتسع معناها ، وتتسع جغرافيتها بحيث تصبح كل الاراضي محرمة ـ التي يضطر الرعاة الى دخولها مع اغنامهم وابلهم وابقارهم .

اثناء عودة الراحلين يكون كل شيء قد حطمته السلطة وادواتها القمعية ؛ أحرقت البيت التعاوني ، واطلقت الرصاص على القائمين عليه ، وسلبت ممتلكاتهم ، وشردت اطفالهم ، واذ يصل ما تبقى من المرتحلين الى ديارهم لا يجدون الا بعض المقاومين والعائدين من القتل ، والكثير من المعتقلين الذي توفي عدد منهم اثناء التعذيب ، هنا تطلق أمينة رمز الصبر والعطاء والقوة ، صرختها العظيمة ، صرخة الألم : «سيروا بجثث ذويكم وهيا في الأرض ، وليكن الله في عونكم» ، «فانطلقوا على وجوههم هائمين ، يبحثون عن ارض ليست محرمة يدفنون فيها جثث قتلاهم» .

تلك هي محنة الفلسطيني المحاصر بالأعداء ، المحتلين الصهاينة والأنظمة الوالغة في الخيانة ، المتخاذلين ، تلك هي مأساة الانسان المقهور ، المشرد ، الذي يحمل معه مأساته ، ومأساة شعبه ، وقضيته ، الى كل مكان ، وفي كل زمان ، ولا يملك الا ان يقاوم ، ان يحيا ، ان يحلم ، وهو الحدث الذي منح الرواية بعداً زمنياً أو من زمن الحدث الروائي نفسه .

●

في الجزء الأول من الرواية ، حين يتكلم الكاتب من المشاهد المتعلقة بالأعداد للتجمع التعاوني يروي على لسان شخصياته الكثير ذلك التجمع ، مقدماً ذلك في اطار من التخيلات التي تصل الى مستوى الخرافة ، ففي المشاهدة الأولى للجد ملحم يقول : «انه بينما كان يوزع الأعمال قائماً آيباً ، يميناً وشمالاً ، وتسمرت عيناه على مجموعة من الرجال يزيدون على الثلاثين كانوا يحملون حجارة متوسطة الحجم ، لا يكونوا يتزحزحون او يسيرون سيراً عادياً ، بل كانوا يحجمون حجماً باتجاه الحظيرة ، وكانوا سيطيرون الى السماء! فقد كانت أقدامهم معلقة على ارتفاع يقارب المتر من الأرض ، وكانت ارجلهم تنطلق الى الأمام دون ان تلمس على اليابسة ، فبدوا له كالخيول الطائرة !!

وفي مشهد التحقيق والتعذيب مع الجد ملحم وصباح داخل السجن ، يظهر لنا الكاتب صلابة الروح لدى الجد ملحم ، وقدرته على المواجهة ، من خلال اعادة رسم هيكله ، فيحوله الى «مارد» يطلق صرخات مدهشة لم يكن بوسع ضابط التحقيق تحملها ، اضافة الى عمق نظراته وتأثيرها السحري .

ويقول الكاتب في مشهد آخر «أخذت اقدام الجد ملحم وصباح ، دون أن تلامسها ، وقفت احداها على ذيلها امام صباح ، نظرت اليها ، تلوّت ، تمايل رأسها ، دارت حول نفسها عدة مرات ، وقوّست جسمها في اتجاه الضابط ، وانطلقت كالسهم ! وعلى ذمة الراوي أن الأفعى اخترقت جسم الضابط ! فقد دخلت من بطنه وخرجت من ظهره فخر على الأرض صريعاً ..

هذه الفانتازيا هي اسلوب للتعبير عن المثيولوجي الاجتماعي ، وليس هنالك ما يدلل على أن ثمة تنافراً بين ما هو واقعي وما هو تخيلي في الرواية كما يعتقد البعض .

ففي مشاهدة الجد ملحم اراد الكاتب أن يؤكد عبر الفانتازيا عمق التعاون ، وصفاء المبادىء ، وقوة الاخلاق ، مستخدماً العناصر الواقعية والمتخيلة . وفي مشهد الأفاعي أراد أن يوظف كل ما من شأنه الدفاع عن حقوق المظلومين والمضطهدين ، فاذا لم يدافع عنهم ابناء جنسهم ، فلتدافع عنهم الطبيعة ، رغم قسوتها وشراستها احياناً ، كما ان الكاتب يفتح باباً آخر على سعته اذ يشير الى الاضرابات والمظاهرات التي عمت المدن وضواحيها .

غير ان هذه الفانتازيا ـ على اهميتها ـ كانت بحاجة الى تمهيد يبررها ضمن السياق الروائي ، من حيث كونها خارج الصراع ، وتشكل دوماً اختياراً سهلاً لحسم العقد الروائية والقصصية المستعصية ، ولكنها تبقى اسلوباً في المعالجة الواقعية ، كما فعل ماركيز في اكثر من موقع في روايته «مئة عام من العزلة» وخصوصاً موت الفتاة ريميديوس وارتفائها الى السماء ، لكن ماركيز قدم تمهيداً واسعاً لروايته ، منذ لحظاتها الأولى ..

صدر للكاتب مجموعتان قصصيتان هما : «نار البراءة» و «الخطار»

## «التمرد» فيلم كيروساوا الجديد

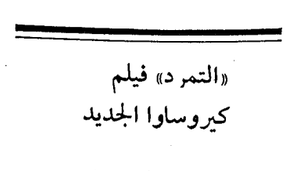

يستعد المخرج الياباني المشهور كيروساوا في تصوير فيلم جديد يعتمد على اقتباس عناصر أساسية من مسرحية شكسبير «الملك لير» .

وكيروساوا الذي فاز بجائزة ، «كان» الذهبية لعام ١٩٨٠ عن فيلمه «ظل المحارب» ، يستعد الآن لتحويل تلك المأساة إلى فيلم سينمائي تدور أحداثه في يابان القرن السادس عشر .

وعن فيلمه الجديد يقول المخرج الياباني الكبير أنه سيسميه «التمرد» وسيبدأ تصويره في نيسان المقبل . وقال المخرج أنه رغم أن فكرة الفيلم مستوحاة من مسرحية شكسبير ، إلا أن المناخ والحبكة أخضعا للتغيير . وذكر أنه كان يفكر بهذا المشروع الجديد منذ سنوات طويلة ، وبسبب المتطلبات المالية الكبيرة ، فإنه لم يستطع توفيرها إلا الآن .

ويقوم الفرنسيون بتمويل فيلم كيروساوا الجديد «التمرد» . ويلعب الدور الرئيسي فيه الممثل تاتسويا كادي ، الذي قام ببطولة «ظل المحارب» .

## الاجراس الحمراء لبوندارتشوك

في موسكو عرض مؤخراً فيلم جديد للمخرج السوفيتي المعروف سيرغي بوندارتشوك ، وهو بعنوان «الأجراس الحمراء» جزؤه الأول «المكسيك في النار» والثاني «رأيت ولادة العالم الجديد» يتناول الفيلم حركة التحرر في المكسيك في أوائل القرن العشرين كما رآها أنذاك الكاتب المشهور جون ريد ، أدى دوره في الفيلم فرنكو نيرو وقد أنجز بوندرتشوك عدداً من الأعمال الهامة أبرزها «مصير انسان» الحرب والسلم ، ومعركة واترلو .

## ديوان الهجاء العربي لهادي العلوي

للكاتب العراقي التقدمي هادي العلوي صدر له في دمشق كتاب ديوان الهجاء العربية عن دار الحوار .

ومن كلمة الغلاف المأخوذة من مقدمة الكاتب نقتطف التالي : أدب الهجاء أدب المجابهة لا المصانعة ، وهو بطبيعته أقرب الى الذات والصق بالمعاناة . كما إنه يتحول من حاجة شخصية عابرة الى موقف نقدي يصبح في صميم الديمقراطية التي تقدس حق المواطن في النقد . أن الهجاء بذلك يعمق مشروعه الجديد ، فيكون أقرب الى جوهر ومهام التغيير من المديح ، بما لا يقاس .

## «بين هلالين» جديد نزيه أبو عفش

للشاعر السوري نزيه أبو عفش صدر ديوان (بين هلالين) عن العربية للدراسات والنشر . والديوان هو السابع في أصدر .

من قصيدة ما سوف يبقى هذا المقطع :

لا رحمة لأحد .
لا غفران لأحد ..
في مدار الذهب والتيجان والرعاع المطاوعين
لا رحمة لأحد . لا غفران لأحد
حيث تصفق اليامات للثعالب ، والموتى للملوك
والطغاة يرجمون الكوكب ويكشفون استانهم الذهبية
حيث تتجانس المشانق والاعلام ، الشمعدانات والخناجر ،
يجلس القاتل على كرسي الشاعر
والجرذان تتناوب اللذة على سرير البتول
والعالم ، جميعاً .. جميعاً ، يطلق صرخته المستديرة
الكاسرة ، كامرأة تدركها اللذة في خاتمة الاغتصاب .

## رجل يستحم بإمرأة

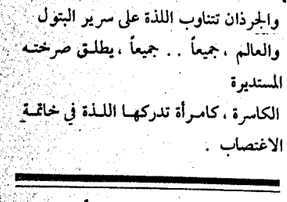


بعد ديوانه الاول «أجزاء ابراهيم خليل الجرادي المبعثرة ـ قصائد وهموم» صدر للشاعر ابراهيم الجرادي نشه الكتابي ـ رجل يستحم بإمرأة ـ المتكون من قصائد كتبت في فترات متباعدة ، ترافقها صور فوتغرافية وتخطيطات لمجموعة من الفنانين ـ ناجي العلي ، ضياء الغراوي ، علي فرزات ، معتصم عبدالكريم ، عادل مهنا ـ ومن نصوصه الشعرية «ما أجمل هذا الذي» :

ما أكثر أعيادك
أيها المزدان بالمآتم
تزدحم بك الغدارات ، فلا تطلق
غيومك في الحقل
تستحضر أمراً بالصدّ
وأمراً بالهجر
تستحضر تابوتاً لنواياك
وآخر لنواياهم
ما أجمل هذا الذي يغير هيئتهُ ليرائي
ما أجمل هذا الذي يغيّر هيئتهُ
ما أجمل هذا الذي يغيّر
ما أجمل هذا الذي
ما أجمل هذا
ما أجمل ...